التّرجمة المتخصّصة للمصطلح النقديّ لدى عبد الملك مرتاض

الطالب :عبد الله مخطاري

الأستاذة المشرفة: د. طاطة بن قرماز

جامعة الشلف

الملخّص:

ستسعى هذه الورقة البحثيّة إلى مكاشفة إسهامات الناقد الجزائري عبد الملك مرتاض في مجال المصطلحيّة، من خلال الوقوف على مظاهر تجسيد التّرجمة المتخصّصة للمصطلح في كتاباته، خاصّة وأنّ هذا النّاقد يُعتبَر من الباحثين الذين قدّموا جهودا يمكن وصفها بالجبّارة في مجال المصطلحيّة، بواسطة ترجمة المصطلحات وضبطها تركيباً ودلالةً أحياناً، أو إبداعها أحياناً أخرى، مع إبداء موقفه تُجاه الفوضى المصطلحيّة، ورؤيته الموضوعيّة لأسبابها وبعض حلولها، فما موقف عبد الملك مرتاض من هذه الفوضى؟ وما أسبابها وحلولها من منظوره النقديّ؟ وما المصطلحات التي تناولها بالدّراسة في كتابه "قضايا الشعريّات" الذي اتّخذَته هذه الورقة البحثيّة أنموذجا لها؟وما مدى التزامه بضوابط التّرجمة المتخصّصة في تناوله لتلك المصطلحات؟

الكلمات المفتاحيّة:

التّرجمة، المصطلح – النّقد – الشعريّة – السّيمائيّة– الإبداع – المصطلحيّة .

إنّ كلّ أمّة تحتاج إلى تجديد معرفتها حتّى لا تُصاب بالرّكود الذي يؤدّي بها إلى الهلاك والدّثور، وحتّى تخطو خطوات إلى الأمام في سبيل التطوّر والازدهار، ونقصد هنا المعرفة بشقّيها، العلميّة والإنسانيّة، فمثلما يعمل الإنسان على تطوير وسائل عيشه لتكون مريحة وأكثر رخاء، يحتاج كذلك إلى تطوير معرفته الإنسانيّة بما فيها اللّغة والأدب والفنون لتكون أكثر استيعابًا وفهمًا وتحقيقًا للتّواصل الإنسانيّ، وأكثر مكاشفةً وإرضاءً للذّات البشريّة، وللوصول إلى هذا التّجديد أو التّحيين هناك عدّة طرق، منها أن تعتمد الأمّة على اجتهاداتها الذّاتيّة، فتنطلق ممّا هو موجود وتبني عليه لتخرجه في حلّة جديدة، سواء بإعادة صياغته اعتمادا على عناصره المتوفّرة أو إضافة عناصر جديدة تمامًا تتوافق معه بشرط أن تتوافق معه وتكون أفضل ممّا هو متوفّر، ومنها أن تعتمد على أمّة أو أمم أخرى، فتطّلع على ما لديهم وتنتقي من ذلك ما يتناسب مع مقوّماتها وأسسها، فتأتي به وتدمجه في معرفتها إدماج طواعية يفيدها وليس إدماج تعسّف وكراهية يضرّها، والإجراء أو الوسيلة الكفيلة بتحقيق هذا النقل هي بلا ريب التّرجمة، وليست أيّ ترجمة، بل المقصود هو الترجمة المتخصّصة.

ومن أجل تحقيق التّرجمة المتخصّصة، ينبغي التّركيز على أمرين حسب اسم هذا الميدان أو هذه الوسيلة الهامّة لنقل المعرفة، أوّلهما يُفهَم من لفظ (التّرجمة)، وهو أنّه لابدّ من وجود مترجمين بارعين ومتمكّنين في لغتينّ على الأقلّ، إحداهما اللّغة الأمّ، أو أكثر من لغتين، فضلا عن الإلمام بشروط التّرجمة وضوابطها، من ذلك الأخلاق التي ينبغي أن يتحلّى بها المترجم، وأهمّها التحلّي بالأمانة العلميّة في النّقل من اللّغة الأصل إلى اللّغة الهدف، سواء فيما تعلّق بالأفكار والمعاني المنقولة أو فيما تعلّق بنسبتها إلى أصحابها، ومن ذلك أيضا الانفتاح على الآخر وعدم إقصائه أو جحود فضله في التوصّل إلى ما توصّل إليه فعلا، يقول عبد الملك مرتاض عن الباحث العربيّ الذي لا يُتقِن إلّا لغة واحدة: " من لا يستطيع أن يقرأ إلّا الكتاب العربيّ الخالص، أي الذي لا يعوّل إلّا على ثقافة تنهض على لغة أحاديّة، فإنّه قد يُصاب بالخيبة من القصور الذي يخيّم على المادّة المعرفيّة التي يتناولها بالقراءة"(*)، وكأنّه يريد أن يقول بأنّ معرفة كلّ أمّة هي معرفة عاجزة ضيّقة محدودة غير كافية، وأنّ المعرفة التامّة هي المعرفة التي تَنتُج عن ضمّ معارف الأمم إلى بعضها البعض، وهذا بطبيعة الحال يحتاج إلى التمكّن من اللّغات التي هي مادّة المعرفة بلا منازع.

أمّا الأمر الثاني الذي ينبغي التّركيز عليه من أجل توظيف التّرجمة المتخصّصة، فيُفهَم من الجزء الثّاني لاسم هذه الوسيلة؛ أي لفظ (المتخصّصة)، وهو اشتراط التخصّص في الترجمة التي ذكرناها، وهذا

يعني ضرورة المعرفة بالتخصّص العلميّ، فالمترجم الذي يريد ترجمة نصّ ما أو مصطلح ما ينبغي له أن يكون متمكّنًا من الميدان المعرفيّ الذي ينتمي إليه النصّ أو المصطلح، حتى تكون ترجمته دقيقة، صائبة، وملائمة، فلا تزيغ عن حيز النصّ الأصليّ ومضامينه وأهدافه، وتكون كذلك صارمة فلا تتشتّت جوانبها بين المعارف ولا تقع في السّطحيّة، فالمترجم "حسْبُهُ أن يتميَّز عن سواه بما يحتاط ويتأنّى ويتشدّد، ويؤصّل ويؤثّل، لدى اتّخاذ هذه المفاهيم، حتّى لا يكون كحاطب بليل، يستعملها في كتاباته كيفما اتّفق"(**)، خاصّة وأنّ الأمر هنا يتعلّق بلغة ليست هي اللّغة الأمّ، وبالنّقل من الأولى إلى الثّانية، وحتّى الثّانية ليست بالأمر الهيّن نظرا لتداخلاتها وتشعّباتها.

بعد هذه الإطلالة على ضوابط التّرجمة المتخصّصة، نأتي الآن إلى لبّ موضوعنا، وهو التّرجمة المتخصّصة للمصطلح النقديّ لدى عبد الملك مرتاض،فبعد انفتاح الدّارسين العرب المحدثين على الدّراسات الغربيّة، ومع ازدياد وتيرة الأخذ والاستفادة من العلوم الغربيّة اللّغويّة والأدبيّة، بَرَزَت إلى الوجود إشكاليّات عويصة شكّلت عقبةً أمام الباحثين، وبقدر ما ساهمت في تنشيط البحث من جوانب، تسبّبت في تعتيمه من جوانب أخرى، ومالت بالدّراسات النقديّة إلى النّسبيّة رغم أنّ تلك المعرفة المُستورَدة تأتي ضمن تيّار يجنح بهذه الدّراسات إلى العلميّة، ولعلّ أهمّ تلك الإشكاليّات، إشكاليّة المصطلح، والفوضى التي ألمّت به واستمرّت فاستقرّت، فتداعى عليها الدّارسون والباحثون، من أجل تشخيص الأسباب، وإيجاد بعض الحلول القمينة بالخروج من فوضى التّناول والمعالجة، إلى فضاء الضّبط والمدارسة، ويأتي في مقدّمة هؤلاء بالنسبة للسّاحة النقديّة الجزائريّة الناقد اللّغويّ الأديب عبد الملك مرتاض.

رؤية عبد الملك مرتاض إلى الفوضى المصطلحيّة وموقفه منها:

لعبد الملك مرتاض رأيه في حال المصطلحيّة التي تعيشها السّاحتين اللّغويّة والأدبيّة، غير أنّ رأيه لا يخرج عن ما تصبّ فيه آراء بقيّة الباحثين المعاصرين؛ حيث أبدى عبد الملك امتعاضه من الفوضى المصطلحيّة المتجسّدة في تعدّد المصطلحات المقابلة للمصطلح الغربيّ الواحد أو العكس، والعلّة الأولى لهذه الفوضى في نظره، هي عدم إنتاج المعرفة والاكتفاء بنقلها عن الآخر ، وقد استنكر هذه التبعيّة في مجال اللّغة(1).

يُبدي عبد الملكهذا الاستنكار في غير موضع من كتبه، من ذلك قوله: "هل محكوم علينا، نحن العرب، على الماضي الثّقافيّ العظيم، أن نظلّ إلى الأبد نقلّد الغربيّين، ونفكّر، أو نكاد نفكّر، أيضا،

بعقولهم... ولا نكاد نتساءل، مرّة واحدة، فيما يبدو، لماذا نفعل ذلك كلّه ولا نستحي؟"[2]، وهنا تساؤل إنكاريّ يبيّن انزعاجه وموقفه الرّافض للتّقليد الأعمى للغرب، على الرغم من وجود أرضيّة لغويّة وأدبيّة، تراثيّة عربيّة أصيلة، صالحة للتّأسيس والبناء عليها، والانطلاق منها إلى الإبداع، بما في ذلك خلق وإبداع المصطلح.

يُظهر عبد الملك مرتاض رفضه لعدوى التقليد لِمَا تعانيه ساحة المصطلح من فوضى، فيتخذ الرّفض موقفاً من ما نعته بالتلقّي الأعمى للعلوم الغربية، بقوله: "نرفض الحداثة التي تنهض على التلقّي الأعمى"[3]، مبيّنا أنّ الحداثة ينبغي أن يُنظَر إليها وتُتَبَنّى على أنّها "دراسة التّراث بمناهج جديدة، أو الانطلاق من هذا التّراث من أجل تمثّل هذه الحداثة الغربيّة واستيعابها ومدارستها"[4] وليس على أنّها "إعلان القطيعة المعرفيّة مع أو على الماضي الغابر"[5]، لكنّ السّؤال الذي يمكن أن يتبادر إلى ذهن متلقّي هذا الطّرح، هو كيف يمكن أن تُوظّف تلك المناهج الجديدة دون توظيف مصطلحاتها المستوردة معها على اعتبار أنّ المصطلح من أساسيّات المنهج؟! أم أنّ كلامه هذا هو دعوة إلى ابتكار وإنشاء مناهج جديدة عربيّة مصنّعة في الدّاخل العربيّ بعقول عربيّة وبتأسيسات وإجراءات ومصطلحات أكثر عروبة؟ أم أنّه يقصد إلى أن يُؤتى بهذه المناهج وتُوضَع في قوالب عربيّة وتُصبَغ بصبغة العروبة، من خلال استبدال بعض إجراءاتها ومصطلحاتها أو كلّها بما يشابهها في التراث العربيّ؟.

يبدو أنّ هذا الاحتمال الأخير هو الذي يقع في تفكير عبد الملك مرتاض، فذاك ما نستشفّه من قوله: "وإذا كنّا نحن لا نفتأ ننادي، مع المنادين، بضرورة الإفادة من آداب الدّنيا كلّها، فإنّ ذلك لا يعني أن يكون كتّابنا وشعراؤنا ونقّادنا مجرّد ظلال شاحبة لسوائهم، فأن أقتبس شيئا من آداب الآخرين، فليس ينبغي أن يعني ذلك أنّني أضيّع مرجعيّتي الأصيلة، فيصدق عليّ حكاية الغراب الذي أراد أن يقلّد مشية الحمامة، فلم يتعلّم مشيتها وأضاع مشيته!"[6]، وفعلا، تلك حال كثير من المحرومين، فلا هم فهموا علوم اللّغة والأدب الغربيّة كما أرادها أصحابها، ولا هم تمكّنوا من علوم تراثهم وطوّروها بما يتماشى ومقتضيات العصر الحاليّ من دقّة وضبط وصرامة، أو قُلْ علميّة، وما الفوضى المصطلحيّة إلّا نتيجة لهذه الذّبْذَبَة والخَبْخَبَة في فهم الآخر، والحَبْحَبَة لسوء الأخذ عن علمائنا القدامى، إنْ لم نقل الغَبْغَبَة في شراء ما تركوه لنا من سلعة لغويّة وأدبيّة ذات جودة، وإنّها لسلعة غالية![7].

إنّ أفضل وسيلة تتّبع هي المزاوجة بين نِتاج علوم الغرب الحديثة وما أنتجته قرائح علماء العربيّة الأجلّاء، خاصّة وأنّ تراثنا العربيّ يحتوي على كثير من أصول النظريّات الغربيّة الحديثة باعتراف كثير من الباحثين، "... وعلينا نحن بلورة تلك الأفكار والآراء، والتّأسيس عليها، والانطلاق منها لدى التّأسيس لنظريّة نقد أصيلة متكاملة"[8]، وطبعا، لا يتحقّق ذلك إلّا بتوفّر باحثين مؤمنين بثراء تراثهم، ومتخلّصين من أغلال تلك الصّورة النّمطيّة لخضوع العرب للغرب المتشكّلة والمعشعشة في أذهان بسطاء العرب ونُخَبِهم، وفي الوقت نفسه منفتحين على الآخر، انفتاح دارس ومتأمّل ومَاحِص[9] وناقد، وليس انفتاح انبهار وإقرار، ثمّ استلام مع استسلام، واكتفاء بترجمة وتكرار، وعدم تغيير أو إضافة رغم الاقتدار، ويجب أن يكونوا متمكّنين من اللّغة العربيّة وآدابها، ولا يجتزئون باللّغة عن الأدب أو العكس، كما هي حال كثير من الباحثين المعاصرين، بحكم أنّ صياغة المصطلح سواء في مجال اللّغة أو في مجال الأدب تحتاج إلى مراعاة الجانب اللّغويّ أثناء الصّياغة حتى يتوافق المصطلح مع قواعد العربيّة، وفي هذا يقول عبد الملك مرتاض عن الجامعيّين والباحثين العرب منكِراً عليهم: "أمسى اللّغويّ منهم يأبى الاشتغال بالنّصّ الأدبيّ حتّى كأنّه جُنُبٌ عن اللّغة، في حين أنّ المشتغل بالأدب يجهل اللّغة أو يكاد، لأنّه غير متخصّص فيها، وهو على كلّ حال لا يعرف من اللّغة إلّا ما يجعله كُتُبُوياً، لا كاتباً... واللّه فعّال لما يريد!"[10]، وما حال اللّغة والأدب إلّا كشجرة أصلها ثابت في الأرض وفرعها في السّماء، فكيف لأدب أن يرتقي وتبلغ جودته عنان السّماء ويؤتي تأثيره أنّى يشاء، إذا لم يرتكز على لغة مؤسّسة، جميلة، وسليمة؟!.

ترسم هذه الرّؤية الواسعة والجريئة من قِبَل عبد الملك مرتاض، طريقا واضح المعالم للخروج من بلاء الفوضى المصطلحيّة الذي ابتُلِيَت به ساحة البحث العربيّة، اللّغويّة والأدبيّة، ولكنّها طريق غير معبَّدة، ولا مُمَرَّدَة، لأنّ اتّجاهها معاكس لاتّجاه طريق العامّة من الباحثين الحداثيّين العرب، الذين ينظرون إلى المنقول الغربيّ المتداوَل بينهم "على أنّه في حكم النظريّة الشّاملة الكاملة التي لا يأتيها الباطل، أو الضّعف، من بين يديها ولا من خلفها"[11]، فلا يَأْمَن السّائر في هذه الطريق اتّهامهم له بالرِّدَّة، وإنّها ليست رِدّة دينيّة، ولكنّها رِدّة لغويّة أدبيّة، تجني على صاحبها القتال، ليس قتال سيوف وسهام، ولكن قتال قراطيس وأقلام، ولا ضير في ذلك، مادام "من حقّ كلّ كاتب مفكّر أن يثير الأسئلة الخالصة له، ثمّ يجتهد في الإجابة عنها بطريقته الخاصّة"[12]، وِفق رؤية موضوعيّة مصحوبة بالدّليل والحجّة والبرهان، وإن اتّهموه بذلك تعسّفاً رغم برهنته على آرائه، فقد كفاه عبد الملك مرتاض شرّهم، حين وصف التّنكّر للتّراث العربيّ واللُّهاث وراء الحداثة الغربيّة بالعقوق، وعلّق قائلا: "فلا يُشَاكِه هذا العقوقَ عقوقٌ!"[13].

يمكن أن يندرج السّعي إلى حلّ لمعضلة المصطلح ضمن حقل "نقد النّقد"، من هنا يؤكّد عبد الملك ضرورة التحلّي بالموضوعيّة في سياق مناداته للتّحرّر من التّبعيّة العمياء التي أنتجت لنا إشكاليّة المصطلح، فيقول: "نحن نرى أنّه آن لنا البدء في التّفكير في نقد النّقد الغربيّ... حقّا، لا نريد أن يكون نقدا بأيّ ثمن، ومن أجل النّقد فقط، فذلك شأن المحرومين والمتعصّبين، ولكنّنا نحاول أن يكون ذلك بموضوعيّة علميّة، وبتأسيس معرفيّ رصين"[14]، ولعلّ هدف مرتاض من هذا هو تأسيس نظريّة نقديّة عربيّة، تستقلّ بما يترتّب عنها عن النظريات النقديّة الغربيّة، وبالتالي يقع التملُّص من إشكاليّة المصطلح التي أرّقت الباحثين.

بصمة عبد الملك مرتاض المصطلحيّة في كتابه قضايا الشعريّات:

لا تكاد تخلو كتب عبد الملك من الخوض في غمار المصطلحيّة، فكثيرا ما يُضَمِّنُهَا اجتهاداتِه في صناعة وضبط المصطلح، ولا يشير إليها عَرَضاً، وإنّما يقف عندها حتّى يستوفيَها حقّها من التّقويم، ويُتِمَّ تصويب ما فيها من خَلَل، مُغْلِظاً القول، ومُعْظِماً الشِّدّة، لأنّ الأمر يتعلّق بالمصطلح الذي كَلِف به كَلَفاً شديداً، وحُقَّ له ذلك باعتبار المصطلحات مفاتيح العلوم، خاصّة وأنّ كثيرا من تلك المصطلحات يكتنفها الغموض الذي أرجعه مرتاض إلى التسرّع في تبنّيها، ولكنّ هذا الغموض –حسبه– ليس مبرّرا لتجاهلها، بل هو محفِّز للخوض فيها[15]، ولعلّ هذا من بين الأسباب التي دفعت مرتاض إلى إعادة النّظر في كثير من المصطلحات المتداوَلة.

يعدّ كتاب "قضايا الشعريّات" لعبد الملك مرتاض من الكتابات التي اعتنى فيها صاحبها بالمصطلح، فكانت صفحاته ميدانا لعرض حوالي عشرين مصطلحا، تناولها الكاتب بالدّراسة والتّدقيق والضّبط.

فانطلاقا من الصّفحات الأولى لهذا الكتاب، بدأ عبد الملك مرتاض اجتهاداته، فتطرّق إلى مصطلح (الشِّعْرِيَّة) محاولا تخليصه من التّداخُل الذي يَعْتَورُه؛ حيث رأى أنّ المقابل الأدقّ لهذا المصطلح في اللّغة الفرنسيّة هو (la poéticité)، ومعناه "الهيئة الفنّيّة، أو الحالة الجماليّة التي تَمْثُلُ في نسج النّصّ لتجعله مشتملاً على خصائص فنّيّة، تميّزه عن النّصّ النّثريّ"[16]، وبهذا المفهوم تقترب (الشّعريّة) في معناها من معنى (الأدبيّة، littérarité)، في حين أعطى للمصطلح الأجنبيّ (la poétique) مقابلا عربيّا هو (الشِّعْريَّات)[17]، وجعل موضوع هذا الحقل المعرفيّ هو الشّعر، أي وظيفتها دراسة جنس

الشّعر، وأهمل في هذا المقام الفرع الآخر لوظيفتها، وهو دراسة كلّ الأجناس الأدبيّة، وقد جاءت هذه الصّيغة جمعاً لا إفراداً، قِيَاساً على (اللّسانيّات)، ويبدو أنّه يُؤْثِر صيغة الجمع حين إطلاق المصطلح على حقل من حقول اللّغة والأدب، وذاك ما يؤكّد في تناوله لمصطلحَي (الدّلالة) و(الأسلوبيّة، stylistique) حين قوله: "الدَّلَاليَّات، هو المصطلح الذي نودّ اقتراحه مقابلاً للمفهوم الغربيّ (sémantique)"[18]، وقوله أيضا: "وربّما يكون الإطلاق الأسلم هو (الأسلوبيّات) كما نقول اللّسانيّات"[19]، وبهذه الصّيغة يُتَداوَل كذلك مصطلح (الصَّوْتِيَّات)، وهي صيغة تدلّ على العلميّة من جهة، لمجيئها على صورة (الرِّيَاضِيَّات)، العِلم المشهور، ولاحتوائها على اللّاحقة (ـيّة) التي "تختصّ – فيما تختصّ به– بالبعد العلميّ العقليّ، وبالتّالي الموضوعيّ"[20]، و تدلّ على شُسُوع الحقل العلميّ وكثرة مباحثه من جهة أخرى، لمجيئها على صيغة الجمع.

وعلى شَاكِلَة المصطلحات السّابقة يأتي مصطلح (السِّيمَائِيَّات)، الذي شاع بين النقّاد المعاصرين بصيغة (السِّيمْيائِيَّات)، ومنهم سعيد بنكراد[21]، لكنّ مرتاض اختصره بحذف الياء التي بعد الميم "حتّى لا تتقطّع به حبال الحَنجَرة، ويغصّ به النّفس"[22]؛ تخفيفاً لنطقه، وهو الإطلاق الأسْلَم؛ لأنّه يمنع التقاء السّاكنين –سكون الميم وسكون الياء التي قبلها– وهو ما من شأنه أن يجعل المصطلح أكثر فصاحة لتوافقه مع مقتضيات الفصاحة العربيّة، أمّا من جهة المعنى فيحتفظ هذا المصطلح بالمعنى نفسه.

الجدير بالملاحظة أنّ عبد الملك مرتاض من فرط اهتمامه بالمصطلح لم يقصُر حديثه عن المصطلحات على متون كتاباته فقط،بل أولى عناية فائقة بتدوين ملاحظات مصطلحيّة مهمّة على الهوامش أيضا، لذا ينبغي على دارس كتاباته ألّا يغفل عن قراءة الهوامش، التي كثيرا ما تضمّ كذلك مصادر ومراجع غربيّة إضافة إلى المصطلحات، فعبد الملك متمكّن من اللّغة الفرنسيّة، لذا فهو يستقي مادّته العلميّة من منابعها الأصليّة، ويُترجمها بنفسه، حتّى وإن توفّرت ترجمات أخرى، وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على مصداقيّة كتاباته ودقّتها، وعلى جدارته في اقتحام مستنقَع المصطلح، نعم هو مستنقَع!، عَلَّه يُسَاهِم في تخليصه من الأوحال التي عكّرت مياهه!.

ومن بين المصطلحات التي تعرّض إليها في الهامش، مصطلَح (الخَلْق، la création) الذي "يُراد به –حَسْبَه– ابتكار جنس من الكلام غير مسبوق على مثال"، فذكر تحرّج بعض العرب المعاصرين منه، على اعتبار أنّ الخالق هو اللّه وحده الذي يتفرّد بفعل (الخَلْق)، وإشراك الأديب المبدِع في ذلك فيه

حرج حسب أولئك النقّاد، فذكر مرتاض مصطلحات أخرى لها المعنى نفسه مع مصطلح (الخَلْق)، هي: (الإبداع)، (الإنشاء)، (الإيجاد)، وذكر عدم تحرّج النقّاد من هذه المصطلحات رغم ذلك[23]، ومن كلامه تتجلّى دعوته إلى عدم التحرّج من ذلك لأنّ الفرق واضح بيّنٌ جليّ بين اللّه الخالق، والأدباء الخالقين، انطلاقا من الشّيء المخلوق، ففي تفسير قوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ {المؤمنون 14} قال البَغَوِيّ: "الخَلْق في اللّغة: التّقدير. وقال مجاهد: يصنعون ويصنع الله والله خير الصّانعين، يقال: رجل خالق أي: صانع"[24]، وبالتّالي فرأي عبد الملك هنا مؤسّس لغويّا وكذلك دينيًا.

وفي هامش كتابه "قضايا الشعريّات" أيضا، تطرّق إلى قضيّة الخلط بين المصطلحين (المفهوم) و(التّصوّر)، وللفصل بينهما جعل مقابل (المفهوم) في اللّغة الفرنسيّة (notion) ومقابل (التصوّر) جعله (concept)، مقرّراً أنّ الأوّل يُستعمَل للشّيء المجرّد، وأنّ الثاني يُستعمَل للشّيء الموجود في الواقع[25]، وفي هذا الفصل بين المصطلحين من الفلسفة ما فيه، إذ يبدو أنّ عبد الملك مرتاض استند إلى خلفية فلسفيّة إضافة إلى الخلفيّة اللّغويّة التي يتقنها، ففي "المعجم الفلسفي" يعرّف جميل صليبا (المفهوم) كما يلي: "المفهوم ما يمكن تصوّره، وهو عند المنطقيّين، ما حصل في العقل، سواء أحصل فيه بالقوّة أم بالفعل"[26]، وهو ما قصده مرتاض مع شيء من التّدقيق بقوله: "الشّيء المجرّد"؛ أي ما يُدرَك بالذّهن دون الحواس، فإذا أُدرِك الشيء بالحواس صار مقابله في الذّهن (تصوّرا) بعد تمثّله وتجسّده أمامها، فلا يُدرَك بالحواس إلّا ما هو موجود في الواقع، فيُقال: مفهوم العدالة ومتصوَّر الحصان –على مثاله–، إلّا أنّ جميل صليبا كان ممّن خلط بين المصطلحين حين عرّف (التصوّرات) –جمع تصوّر– تأثّرا بعلماء النفس والمناطقة، بأنّها "هي المعاني العامّة المجرّدة"[27] دون التنبيه إلى هذه اللّطيفة من اللّطائف التي كثيرا ما يَبْرَع عبد الملك في التنبّه والتّنبيه إليها.

وممّا يُثبِت دقّةَ عبد الملك مرتاض المتناهية، وسعيَه الحثيث إلى ضبط المصطلحات لتخليص ساحة البحث من الغموض الاصطلاحي، ولتنوير دروب الباحثين الجامعيّين العرب، طلبةً وأساتذةً، تفريقُه بين الصّفة والمذهب، إذ يتعرّض إلى المذهب الأدبيّ الكلاسيكيّ فيقول: "نقترح أن يُتَرجَمَ مفهوم هذا المذهب الأدبيّ إلى مصطلح (الكلاسيّة) ونذر مصطلح (الكلاسيكيّة) أو (الكلاسيكيّ) ليتمحّض للصّفة، فيُقال مثلا، هذه قصيدة كلاسيكيّة، وفي هذه القصيدة كلاسيّة بادية"[28]، فحذَف الكاف الثّانية والياء التي قبلها، وضرب مثالا على طريقة استعمال المصطلح ليتّضح مقصوده، وهذا دأبه في شتّى كتاباته، وما قاله عن الكلاسيّة –حسب ما اقترحه– سَحَبَه على المذهب الأدبيّ الرّومنسيّ؛ حيث نبّه إلى خطأ إطلاق

مصطلح (رُومَنْسِيَّة) للصّفة والمذهب معا، في حين أنّ في اللّغة المقابلة تكون الصّفة (Romantique) والمذهب (le Romantisme)، لذا اقترح إطلاق (رُومَنْتِيقِيّ) للصّفة، والاحتفاظ بـ(رُومَنْسِيَّة) للمذهب، كما نبّه إلى وقوع البعض في اللّحن بكتابتهم (الرّومانسيّة) بالألف ممّا ينتج عنه التقاء السّاكنين، في حين أنّ الصّواب إسقاط الألف(29)، ومثل هذه الملاحظة الإملائيّة وجّهها إلى مصطلح آخر، هو مصطلح (icône) الذي يقابله في العربيّة المصطلح المعرَّب (إيقونة) والذي يعني في مجال السّيمائيّة سمة حاضرة دالّة على سمة غائبة؛ حيث دعا إلى كتابته بدون ياء بعد الهمز، ليس لالتقاء ساكنين، وإنّما ليُطابق المصطلح الأجنبيّ بدقّة، رغم أنّه اقترح في البداية أن يُستبدل المصطلح المعرَّب كلّه بمصطلح آخر، هو (مُمَاثِل) على صيغة اسم الفاعل من الفعل (مَاثَل)، وعِلّة تفضيل هذا الأخير هي أنّه لفظ عربيّ أصيل بعيد عن التّعريب(30)، وكما يُلاحَظ، يُعطي عبد الملك أهمّية كُبرى للجانب اللّغويّ، الذي يتعلّق بقواعد الفصاحة والأصالة العربيّة، من اختصار للمصطلحات، ومراعاة لتوالي حروفها وحركاتها، مع مراعاة مطابقتها الدّلاليّة، وأحيانا النُّطقيّة، لِمَا يُقابلها في اللّغة الأجنبيّة، وإن كان دعا في موضع من كتابه "في نظريّة النقد" دعوة فيها من الجرأة العلميّة الشّيء الكثير، لتعلّقها بإحدى قواعد العربيّة الفصحى.

تلك القاعدة، هي قاعدة البناء الخماسيّ التي يقوم عليها الاستعمال في اللّغة العربيّة، بحيث لا يتجاوز عدد الحروف الأصليّة خمسة عند صياغة كلمة من طائفة من الكلمات كقولهم: حمدلة وبسملة...، فعبد الملك مرتاض دعا إلى السّماح بالخروج عنها حين يتعلّق الأمر بصناعة المصطلح وصياغته، وعِلّة ذلك "أنّنا إذا لم نسمح بإضافة حرف واحد في مثل هذه الأطوار، في اللّغة العلميّة الجديدة، فإنّنا سنظلّ عاجزين عن إيجاد معادلات عربيّة قابلة لاستيعاب المفاهيم العلميّة استيعابا علميّا لما هو جار في اللّغات الأجنبيّة الحيّة"(31)، وبهذه الطّريقة تصبح العربيّة أكثر اقتداراً على مجاراة اللّغات الأخرى، والحقّ أنّ مثل هذه الخطوات ينبغي اجتنابها ما أمكن، وعدم اللّجوء إليها إلّا للضّرورة القُصوى، وقد طبّق مرتاض هذا التّجاوز في وصف شيء ما بأنّه (أورو – أمريكيّ) –ولتكن مرجعيّة ما مثلا– حيث قال: "وأوثر أنا استعمال نحت عربيّ أصيل، لا نحتٍ مركّب على الطّريقة الغربيّة، فأقترح عبارة: (مرجعيّة أورُوكيّة)"(32) فنحت لفظا من لفظين اثنين على طريقته، وهو لفظ مقبول تستسيغه الأذن، ويصدر سلساً عن جهاز النطق، عكس الجمع بين اللّفظين السّابقين اللّذين يتطلّبان جهدا أكبر لكثرة حروفهما ولاجتماع همزتيهما.

وممّا يُثبت كذلك دقّة عبد الملك مرتاض وحسن ملاحظته وعدم انسياقه وراء الأخطاء الشّائعة، اهتمامُه حتّى بـ "النّسبة"، ومن ذلك تمييزه في أكثر من مرّة بين مصطلحَي (اللّسانيّ) و(اللّسانيّاتيّ)، "الأوّل نسبة إلى مجرّد (اللّسان)، والآخر نسبة إلى علم الألسنة، أيّ (اللّسانيّات، Linguistique)، كما يجب التّمييز بين الرّياضيّاتيّ (نسبة إلى الرّياضيّات)...، وبين الرّياضيّ (نسبة إلى الرّياضة)"[33]، وإن كانت بين اللّسان واللّسانيّات صلة لا نجدها بين الرّياضة والرّياضيّات، إلّا أنّ هذا التمييز بين النّسبتين صائب دلاليّا وبنائيّا.

تتميّز كتابات عبد الملك مرتاض بالرّقيّ من النّاحية اللّغويّة، فهو يتوخّى أسلوباً رصيناً فخماً رغم أنّ موضوعاته تتناول النّظريّات وأصول المعرفة، دون ابتعاده عن العلميّة التي يقتضيها البحث، وإن كان النّقد ليس بعلم فقط، وإنّما هو فنّ وإبداع إضافة إلى علميّته، كما يعتمد معجماً لغويّاً ثريّاً في كتاباته، وهذا ما يجعل القارئ يستمتع بها، فعبد الملك مرتاض إن وصف أشبَع، وإن مدح أبدَع، وإن هجا أقذَع، وخاصّة إذا كان في موضع دفاع عن رأي ما أو عن اللّغة ككلّ، فهو حينئذ يُطلق العنان لملكته اللّغويّة من أجل استهداف الغايات والمرامي، ولعلّ لهذه الغاية استحدث مصطلحاً جديداً في اللّغة العربيّة، أطلقه على من تكون كتابته عاديّة بسيطة بعيدة عن المستوى الرّفيع، لا إبداع فيها ولا خيال، وهو مصطلح (كُتْبُوب) الذي يُجمع على (كَتَابِيب)، يقول: "وقد وضعنا هذا المصطلح لأوّل مرّة في العربيّة في حدود علمنا بما كُتِب، قياساً على المصطلح النّقديّ العربيّ القديم (شُعْرُور)، وجئنا به ترجمة للمصطلح البارطي الذي أُريدَ به إلى التّهجين، وهو: (Ecrivant) بَدَل (Ecrivain)"[34]، ومثل ذلك مصطلح (أُدْبُوب) الذي ذكره في قوله: "التّعبير الفنّي يميّز الأديب من الأُدْبُوب والشّاعرَ من الشُّعْرور"[35]، وهنا يتجلّى بوضوح استثمار عبد الملك للتّراث في صياغة المصطلحات، فلفظ شعرور الذي قاس عليه، ذَكَرَه الجاحظ في تقسيمه للشّعراء حسب جودة شعرهم، إذ قال: "والشّعراء عندهم أربع طبقات؛ فأوّلهم: الفحل الخنذيذ، ودون الفحلِ الخنذيذ الشّاعرُ المُفْلِق، ودون ذلك الشّاعر فقط، والرّابع الشُّعرور"[36]، فمصطلح (كُتْبُوب) جاء به عبد الملك للتّمييز بين الكتّاب والكتابيب، حتّى لا يُظلم أولئك في زمنٍ كثر فيه هؤلاء، وصار كلّ من تسوّل له نفسُه الكتابةَ يَحْمِلُ قلماً ويُخَرْبِش كُتَيِّباً، دون عناء كثرة قراءة ولا مُدارَسَة، وبالتّالي يُساعد هذا المصطلح النقّاد في إنزال كلّ مدّعٍ منزلته ومكانته التي تليق به.

ومن المصطلحات التي أبدع في فتق دلالتها عبد الملك مرتاض، ودافع عنها وتداولها كثيرا في كتاباته وتحليلاته، مصطلح (الحيّز)، المقابل للمصطلح السّيمائيّ الأجنبيّ (Espace)، فخالف بذلك

عامّة النقّاد العرب المعاصرين الذين يصطنعون مصطلح (الفضاء) مقابلاً للمفهوم الأجنبيّ، وحُجَجُه على اختياره هي أنّ (الفضاء) قليل الاستعمال في التّراث العربيّ مقارنة بـ (الحيّز)، وأنّه "لا يُفضي إلى دقّة المعنى المتوَخَّى في اللّغة العربيّة، ذلك بأنّ الفضاء اتّخذ له في العربيّة الجارية المعاصرة، مفهومَ الجوّ الخارجيّ الذي يُحيط بنا"[37]، وأنّه يعني الخلاء المُطْلَق، "في حين أنّ (الحيّز) يشمل الخلاء والامتلاء جميعا"[38]، فالحيّز عند مرتاض: "هو كلّ فراغ أو حركة أو اتّجاه أو بُعد أو طول أو عرض أو سطح أو عمق أو حجم أيضا، ولكن ممّا ينشأ عن تَمَثُّلات الخيال الرّحيب، لا ممّا ينصرف معناه إلى المكان الجغرافيّ المحدود بضبط المساحة وتقدير الارتفاع والانخفاض والانبساط"[39]، ولو جاء باحث إلى التحقّق من المعنى، فرجع إلى المعاجم العربيّة بُغيَة استقصاء ذلك، لوجد معنى (الفضاء) في معجم لسان العرب أنّه "الخالي الفارغ الواسع من الأرض"[40]، ولوجد معنى (الحيّز) أنّه كلّ جَمْعٍ مُنضمٍّ بعضُه إلى بعض، حيث جاء في لسان العرب: "حَوْز الدّار وحَيْزها: ما انضمّ إليها من المرافق والمنافع، وكلّ ناحية على حِدَة حَيِّز"[41]، وكذلك الصّور الفنّيّة التي يبدعها الأديب اعتماداً على خصوبة خياله تكون مشكَّلة من عدّة مشاهد تحوي تفصيلات تكوّنها، وانضمام هذه التّفصيلات وهذه المشاهد إلى بعضها البعض لا يشكّل فضاء، وإنّما حيّزا، يُبدِع الأديب في رسمه بالكلمات والتّراكيب بعدما رُسِم في خياله بالمناظر وبأبعاد ثلاثة، وبالتّالي كان عبد الملك مرتاض صائباً في ما ذهب إليه، فالدّلالة المُبتغاة يحقّقها مصطلح (الحيّز) وليس مصطلح (الفضاء).

درس عبد الملك مرتاض في كتابه "قضايا الشعريّات" أحْيَاز –أو حَيَائِز– عدّة مقاطع من بعض القصائد، ومن جملة تلك القصائد، بعض مقاطع ما يُعرَف بقصيدة النّثر، التي خصّص لها فصلاً كاملاً من كتابه، لِنَقْمِه على هذا النّوع من القصائد؛ حيث هاجم قصيدة النثر، وممارسيها، وداعميها على قلّتهم، فلم يعترف بها وحاول البرهنة على رؤيته، غير أنّ ما يهمّ هذه الورقة البحثيّة من كلّ هذا، هو مصطلح (قصيدة النثر)، وموقف عبد الملك منه، فقد رفض مرتاض هذا المصطلح رفضاً نابعاً من رفضه لهذا الضَّرب الشّعريّ ككلّ، فقال عنه: "شاع إطلاق هذا المصطلح الهجين الرَّذْل على هذا الضّرب من الكلام... وهو مصطلح مهزوز لمّا يتّفق النقّاد المعاصرون على استقامته وصلاحه للاستعمال"[42]، فاعتبره مصطلحا قبيحا يستحقّ الاحتقار والنّبذ، لجمعه بين فنّين مختلفين تماماً في مبادئهما وأسسهما، لا يلتقيان، وما ينبغي لهما، واكتفى بوصف تلك القصائد بـ "الكلام" أو "الكلام الجديد"، فمحاولة الجمع بين الفنّين في فنّ واحد، ما هي إلّا محاولة لتغطية عجز الممارسين له عن الإتيان بالشّعر الحقّ على

الطّريقة التي سَنَّهَا فحول اللّغة والأدب، في عصر استُبيحت فيه حُرمة الكتابة من قِبَل "كتابيب" يقتحمون ميدان الكتابة والشّعر تعسّفا دون غرس بذرة الكتابة في نفوسهم، وبذرتها هي كثرة القراءة.

خلاصة:

لكلّ محطّة من محطّات البحث حقّ ينبغي أن يُستَوفى لها، ومن حقّ خاتمة البحث أن تضمّ مجموعة النتائج والاستنتاجات التي توصّل إليها البحث، ومن جملة نتائج هذه الورقة البحثيّة التي يمكن سردها في هذا المقام مايلي:

1- اهتمّ عبد الملك مرتاض بإشكاليّة المصطلح وكَلِفَ بها كَلَفاً شديداً، فاحتلّت حيّزا كبيراً من كتاباته.

2- إسهامات عبد الملك مرتاض في مجال المصطلحيّة اتّخذت ثلاثة أشكال: الأوّل ضبط المصطلحات؛ بإدخال تعديلات عليها والقيام بتغييرات لغويّة ودلاليّة وإملائيّة، والثّاني المفاضلة بين مصطلحين اثنين أو أكثر مع اعتماد إحداها كمقابل لمصطلح أجنبيّ ما ونبذ البقيّة، والثّالث إبداع واستحداث واصطناع مصطلحات جديدة.

3- أهمّ الأمور التي أكّد عليها عبد الملك مرتاض هي ضرورة استثمار التّراث والاستفادة منه وعدم التنكّر له في مجال المصطلحيّة واللّغة والأدب بشكل عامّ.

4- السّبب الأوّل المولِّد لإشكاليّة فوضى المصطلح هو الاكتفاء بالتّبعيّة العمياء للغرب وعدم إنتاج المعرفة، والحلّ يمكن أن يكون باستخلاص وتطوير نظريّة نقديّة عربيّة أصيلة، يترتّب عنها إنتاج مناهج تحوي مصطلحات عربيّة قُحَّة وبذلك لا يتمّ الوقوع في مغالطات ومتاهات التّأويل وإيجاد المقابِلات.

5- الخوض في ميدان المصطلحيّة يتطلّب أن يكون الباحث ذا ثقافة لغويّة كبيرة إضافة إلى ثقافته الأدبيّة؛ أي أن يكون ذا اقتدار لغويّ أدبيّ يمكّنه من التّدقيق في المصطلحات ومن تمحيصها.

6- الحقّ أنّ الملتقيات والمؤتمرات والنّدوات والكتب والمجلّات والمقالات والمداخلات والأبحاث ككلّ، لن تتوصّل إلى حلّ لفوضى المصطلح!، بل ستزيد الفوضى شتاتاً، ولن تحلّ المشكلة بتاتاً، ما لم تتدخّل الإدارات، كيف ذلك؟ إنّنا نقترح أن يتمّ عقد اتّفاقيّة بين الجامعات العربيّة على إنشاء موقع إلكترونيّ يضمّ كلّ المصطلحات اللّغويّة والأدبيّة بترجماتها ومفاهيمها المحدّدة والمعيّنة، بحيث لا يُقبَل من قِبَل لجان

مناقشة البحوث المقدّمة في الجامعات المعنيّة أيّ مصطلح يُستعمَل في تلك البحوث يكون على صيغة أو على دلالة غير الصّيغة والدّلالة التي يكون عليها المصطلح في هذا الموقع الالكترونيّ، وهكذا يُغلَق الباب أمام التّضليل، وتستبين الطّريق أمام الطّلبة الجامعيين وحتّى الأساتذة الباحثين، فيتقدّم البحث ويقطع أشواطا كبيرة ما كان ليقطعها لو لم يتمّ التخلّص من عقبة الفوضى المصطلحيّة بهذه الطّريقة الحاسمة الصّارمة.

هوامش البحث:

(*) عبد الملك مرتاض، مائة قضيّة وقضيّة، د ط، دار هومة، الجزائر، 2012م، ص242.

(**)المصدر نفسه، ص97.

(1)ينظر، عبد الملك مرتاض، قضايا الشعريات، ط1، دار القدس العربيّ، وهران، 2009م، ص219.

(2)عبد الملك مرتاض، في نظريّة النّقد، د ط، دار هومة، الجزائر، 2002م، ص20.

(3)عبد الملك مرتاض، الكتابة من موقع العدم، د ط، دار الغرب، وهران، 2003م، ص13.

(4)المصدر نفسه، ص7.

(5)المصدر نفسه، ص7.

(6)عبد الملك مرتاض، قضايا الشعريات، ص393.

(7) خَبْخَبَة: مصدر خَبْخَبَ، يقال: خبخبَ الشيءُ: أي استرخى واضطرب/ الحبحبة: مصدر حَبْحَبَ: أي ضَعُفَ لسوءِ الغِذاء/ الغَبْغَبَة: مصدر غَبْغَبَ: يقال: غَبْغَبَ فلانٌ: أي خان في بيعه وشرائه.

(8)عبد الملك مرتاض، الكتابة من موقع العدم، ص9.

(9)مَاحِص، اسم فاعل من (مَحَصَ): يُقال: محَص الفكرةَ في ذهنه: أيّ تفحَّصها بتروٍّ وإمعان، قلَّبها من الوجوه كلِّها، درسها بعناية ودقَّة.

(10) عبد الملك مرتاض، قضايا الشعريات، ص150.

(11)عبد الملك مرتاض، الكتابة من موقع العدم، ص6.

(12)عبد الملك مرتاض، في نظريّة النّقد، ص11.

(13) عبد الملك مرتاض، الكتابة من موقع العدم، ص80.

(14)عبد الملك مرتاض، في نظريّة النّقد، ص21.

(15) يُنظر، عبد الملك مرتاض، قضايا الشعريات، ص192.

(16)المصدر نفسه، ص17.

(17)المصدر نفسه، ص18.

[18]عبد الملك مرتاض، الكتابة من موقع العدم، ص35.

[19]المصدر نفسه، ص95.

[20] عبد السّلام المسدّي، الأسلوبيّة والأسلوب، ط5، دار الكتاب الجديد المتّحدة، بيروت، 2006، ص31.

[21] يُنظر، سعيد بن كراد، السيميائيّات مفاهيمها وتطبيقاتها، ط3، دار الحوار، سوريا، 2012م.

[22]عبد الملك مرتاض، قضايا الشعريات، ص19.

[23] يُنظر، المصدر نفسه، ص84.

[24]أبو محمد الحسين بن مسعود البغويّ،معالم التنزيل، تح: محمد عبد الله النمر وآخرون، ط4، دار طيبة، 1997م، ج5، ص412.

[25]يُنظر، عبد الملك مرتاض، قضايا الشعريات، ص86.

[26]جميل صليبا، المعجم الفلسفيّ، د ط، دار الكتاب اللّبنانيّ، بيروت، 1982م، ج2، ص403.

[27]المرجع نفسه، ج1، ص281.

[28]عبد الملك مرتاض، قضايا الشعريات، ص101.

[29]يُنظَر، المصدر نفسه، ص101.

[30] يُنظَر، المصدر نفسه، ص162.

[31]عبد الملك مرتاض، في نظريّة النّقد، ص136.

[32]عبد الملك مرتاض، قضايا الشعريات، ص386.

[33]المصدر نفسه، ص193.

ويُنظر، عبد الملك مرتاض، في نظريّة النّقد، ص144.

[34]عبد الملك مرتاض، في نظريّة النّقد، ص206.

ويُنظر، عبد الملك مرتاض، قضايا الشعريات، ص129.

[35] عبد الملك مرتاض، قضايا الشعريات، ص212.

[36] عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، تح: عبد السّلام محمد هارون، ط7، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1998م، ج2، ص9.

[37]عبد الملك مرتاض، قضايا الشعريات، ص220.

[38]المصدر نفسه، ص220.

[39]المصدر نفسه، ص224.

[40]ابن منظور، لسان العرب، د ط، دار صادر، بيروت، د ت، مج15، ص157.

[41]المصدر نفسه، مج5، ص342.

[42]عبد الملك مرتاض، قضايا الشعريات، ص359-362.

مصادر ومراجع البحث:

❖ القرأن الكريم، رواية ورش.

2- البغويّ (أبو محمد الحسين بن مسعود البغويّ 516هـ)، معالم التنزيل، تح: محمد عبد الله النمر وآخرون، ط4، دار طيبة، 1997م.

3- الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ 255هـ)، البيان والتبيين، تح: عبد السّلام محمد هارون، ط7، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1998م.

4- جميل صليبا، المعجم الفلسفيّ، د ط، دار الكتاب اللّبنانيّ، بيروت، 1982م.

5- سعيد بن كراد، السيميائيّات مفاهيمها وتطبيقاتها، ط3، دار الحوار، سوريا، 2012م.

6- عبد السّلام المسدّي، الأسلوبيّة والأسلوب، ط5، دار الكتاب الجديد المتّحدة، بيروت، 2006م.

7- عبد الملك مرتاض:

•في نظريّة النّقد، د ط، دار هومة، الجزائر، 2002م.

•الكتابة من موقع العدم، د ط، دار الغرب، وهران، 2003م.

•قضايا الشعريات، ط1، دار القدس العربيّ، وهران، 2009م.

*مائة قضيّة وقضيّة، د ط، دار هومة، الجزائر، 2012م.

10- ابن منظور، لسان العرب، د ط، دار صادر، بيروت، د ت.